رسالة أخيرة لباسل الكبيسي

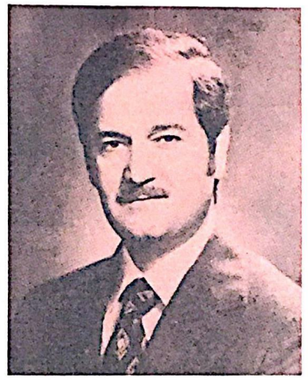

أيها الحبيب

الان ، وانت مسجى ، ملفوف بوشاح بلادك وكأنك فارس آت لتوه من حطين او شهيد حملته ايدي الانصار من ذي قار . الان، والحزن العميق يفجر شوارع موكبك الاخير والعيون من حولك دامعة مفرورقه . الان، والفاجعة تسحق كل الكلمات فان الذكريات يا باسل الحبيب تموج في القلب وتتفاعل في الاعماق . تطفو الذكريات ومسيرة العذاب والصمود الشامخ الى الجلجلة .. اتذكر ان اول نشرة ثورية سربتها لي كان اسمها « الثأر » . كنت يومها صغيرا وكم ثمة ابيات من الشعر ظلت محفورة في وجداني :

سأحمل روحي على راحتي
والقي بها في مهاوي الردى
فاما حياة تسر الصديق
واما ممات يغيظ العدى

ايها الراحل الغالي .. برغم كل زلازل الغضب وكل عذابات الفراق فان سقوطك الشامخ على الرصيف كان فخرا لكل الاصدقاء .. كان هتاف موكبك الاخير هلهولة لذواهب دمه .. حتى في موتك كنت وفيا لنشراتك السرية . لم يكن هناك ثمة طلاق بين اللسان والقلب ، بين القول والعمل .. هتُولة للواهب دمه ..

في حياتك حققت الكثير من اجل الوطن .. في بيروت جرحت جبهتك وانتزعوك من مقاعد الدراسة .. في بغداد ، ايام اغلال الاحلاف العسكرية والاقطاع، رفعت السلاح طريقا وحيدا للتصدي للطغيان والارهاب .. من اجل راية الوحدة المجيدة غبتوراء قضبان السجون شهورا طوال .. في دراستك وصلت لقمة الانجاز الاكاديمي . مع كل ذلك يبقى نصرك الكبير ، يبقى ظفرك الرائع يبقى عرسك الاكبر ساعة استشهادك البطولي ..

لم يرهبك الكفاح ولم يضنك ، لم تشد خطاك زوجة واطفال وعائلة تعبدك ، لم تغلك اوهام وتستثير مطامعك وعود .. عذبك حتى الاعماق وطأة رزايا الاحتلال وعنجهية الغزاة الجدد ومزقتك عذابات شعب الخيام .. فخرجت اليهم وكأنك واحد من ابناء الخيام خرجت اليهم مجاهدا وطنيا وقوميا وامميا .. خرجت اليهم بكل عنفوان التحدي وصلابة الايمان .. خرجت اليهم سلاحا بسلاح وموتا بموت .. عبرت البحار من اجل لاجيء معذب وجندي مات عطشا في سيناء، وطفل مزقته القنابل في السويس وفلاح ترك ترابه في العرقوب والجولان.. وفي بغداد ودعتك الناس بأهزوجة هاهولة للواهب دمه ..

★★★

في ليل باريس العدائي البهيم ، كانوا وراءك يترصدون خطاك المهيبة وكانت طلقات دم دم التسع . خمسة في جسدك واربع في راسك . الشاهد الوحيد سمعك تدوي بآخر كلماتك .. « لا » .. اذن يا باسل فحتى اللحظة الاخيرة وانت تهزج لفظة الرفض النبيل . اربعون عاما وانت ترفض . تحيا وانت ترفض ، تموت وانت ترفض .. فلتدوي الكلمة المرواة بالدم ولتسمعها جماهيرنا عاليا ..

هل يفهمون معنى ذلك . اولئك الذين لم يعرفوا سوى الخنوع والمذلة والحياة باجازة .. هل يفهمون الرفض النبيل .. يقولون لماذا لم يصن حياته لاحبائه ومستقبله ، اكان عدلا ان يجازيهم بالموت ؟ يا الهي هؤلاء هل يعرفون معنى الحب حقا ؟.. ايراد لك ان تنكر نفسك ووطنك .. وبعد كل حساب هل يوسع الجبان والهارب والمتنصل ان يحب حقا او يحيا حقا ؟.. هل يوسع من يرضى الحياة في قرى يحرثها الطغاة وتدوس عليها سنابك الغزاة ان يحب ويحيا ..

لقد تصدى لهم باسل لانه كان قد احب حقا .. انني اكثر من واثق بأنه عندما اصبح الموت فوق راسه .. من خلفه .. من امامه فانه قد ذكر وجه ابيه وامه .. انا واثق أنه لم يحب يوما نادرة وصبيح واحمد ولحاظ وياسر وبوب وصبيحة كما احبهم ساعة الموت الوبيل ..

ساعة الطلقات الوحشية حيث صرخ في قمة الشموخ مؤكدا الرفض النبيل .. في تلك اللحظات كان حبه غامرا وحنينا وحزنا ، يا احباءه هو لم يحبكم كما احبكم في مثل تلك الثواني ، اعذروه فلقد كان الطريق الوحيد ان يعود اليكم نازف الجراح .. ان يعود اليكم شهيدا وقتيلا . ان من لا يحب وطنه ليس بوسعه ان يعشق شيئا آخر . وبعد فسيبقى الكثير في هذه الحياة يبحث عن السلامة ، لا يعشق ولا يقارع . ولكن .. ولكن غدا اذ تسال الارض من جناتها ومن قابض بها .. ومن بالدم المعطاء افتداها .. غدا ستعلمون يا احبة كم احبكم باسل ، ذلك الذي هوى وحيدا وحيدا في ليل باريس العدائي البهيم.

★★★

في آخر لقاء لنا قلت لي لو القت كل الامة السلاح فلسوف لن نلقيه نحن ، ولسوف نقاتل حتى النهاية ، ولسوف تكون الثمن والضمير .. انت لا تعرف حين ارتحلت يا باسل للخلد روحك.

ماذا كان عذابي العميق تصوري بانك والطلقات الوحشية تهوي بك على الارض ، تعصف الثورة في روحك ، تقالب جراحك وكفى لا تقوى فالليل بهيم وانت وحيد والجراح عذاب وحريق . تحاول ان تنال الثورة، ان تعانق النصر لكن الجراح تنأى وتنأى بك .. قبل ايام اكتشفت خطأي الكبير . ان العدو في غمرة رعبه منك ومن اشباح الرفاق كان قد نسي الامة وسلط كل اجهزة مخابراته على الذين ارادوا ان يكونوا الثمن والضمير . وعندما تفجرت في اعماق الشعب براكين الغضب ، فوجيء العدو. اذن انت لم تمت في باريس بل كانت روحك معهم تجتاز القناة وتقتحم الجولان تقاتل بالسلاح الابيض وتفجر براكين اللهب . لسوف لن تنساك الامة فلقد كنت والرفاق اغلى ثمن وانبل ضمير .

★★★

حين قبلت ، من خلال الدموع ، جبهتك العزيزة ، رايتهم بالمئات . لا اعرفهم لا يعرفوك . لكنهم اتوا من تونس والمغرب وسوريا والعراق والجزائر ومصر وفلسطين. كان الصمت الحداد الرهيب . لم تتفوه بكلمة وكفى الصمت كان يدوي كالقسم .. الارض لنا ولن تغروا يا طغاة .. حين راوا الكدمات في محياك النبيل ، كان السؤال المرير من خلال النحيب « اكتب عليكم كل هذا الثمن ؟ » .. في موكب عرسك الاخير كان حداء الجماهير « يا باسل ولا تهتم .. وحدة ونفديها بالدم » .. ايتها الوحدة المقدسة كم من الشهداء سيروون مسيرتك الغالية . ان الشعوب لا تنسى يا باسل والكلمة المضيئة المروية بالدم ستظل تدوي وتشق التاريخ وغدا اذ « يطلع الفجر بعد الليل مهما طال » (اتذكر ؟) فان دمك سيكون قد سقى الامال الخالدة .. فلاحوا كبيسة الفقراء هرعوا لوداعك الاخير وبكوا وهم يرددون « شهل الغيبة يا هلال كبيسة » . عندما يوهب الدم فان القرى الصغيرة النائية تستحيل لتكون كل الوطن . موتك الشامخ جعل كبيسة تمتد من المحيط الى الخليج . باسم فلاحيها وفقرائها اليك يا باسل شكر كبيسة وشكر الوطن.